الفصل السادس

بنية المجتمع وبناؤه

ـ البنية والبناء .
ـ التحول السياسى والاجتماعى الشامل فى عصرنا .
ـ الإستابلشمنت : النظام القائم .

بنية المجتمع وبناؤه

البنية والبناء :

ومن أظهر ما استحدثه وتكلم فيه أهل المادية التاريخية هو قولهم إن المجتمع ـ كل مجتمع ـ يتكون من جزءين رئيسيين: أولهما القاعدة أو البنية، وتسمى فى مصطلحهم بلفظ ألمانى هو Der Bau لأنهم جميعاً كانوا يكتبون بالألمانية، وترجم المصطلح بلفظ Structure عند الإنجليز والفرنسيين، أو ما يقابله فى الإسبانية Es-tructura، وفى الإيطالية Struttura ويراد به كل العناصر التى يتألف منها صلب المجتمع، فهى بنيته أو قوامه أو تركيبته ، أما ما ينشأ فوق هذا الأساس أو البنية فيسمى عندهم البناء العلوى أو الأوبر باو Der Ueberbau أو السوبر ستراكتشر. فالبنية هى الأساس الثابت للمجتمع، والبناء ما ينشأ فوق الأساس ، وهو قابل للتغيير غير ثابت، فإذا أنت أخذت المجتمع المصرى ـ مثلاً ـ وجدت أن بنيته تقوم على الزراعة التى تعتمد على غمر الأرض بالماء أو ريها بآلات بسيطة؛ لأن الأرض سهلة منبسطة، ومثل هذه الزراعة التى تعتمد على ماء ميسور يأتى مع الفيضان، ولا تعتمد على مطر قد ينزل وقد لا ينزل، تولِّد فى نفس الإنسان ركوداً أو ميلاً إلى الركود، ويصاحب ذلك اعتماد على قوة عُليا هى التى تقوم بمعظم العمل؛ لأن الفلاح يبذر البذور، ولكنه لا يُطلع الثمر، وقد تعودنا ـ خطأ ـ أن نقول إن هذا النوع من الزراعة يولِّد فى النفس الرغبة فى التعاون مع الغير، وأن المجتمع المصرى بطبعه مجتمع تعاونى ، وهذا غير صحيح؛ لأن التعاون بين الناس فى مثل هذا النوع من الزراعة يكون فى البداية، أى أنه كان فى بدايات التاريخ المصرى القديم، فلما ثبتت الأرض على حال واحدة وزرعت عاماً بعد عام، استقر الأمر على صورة من التقليدية تولد فى النفس شيئاً من البلادة أولاً، ثم يصاحبها بعد ذلك ميل إلى الانفراد بالعمل، والاستئثار بالأرض والخيرات بعد ذلك.. فكل فلاح يريد أن يكون مستقلاً بأرضه عن جيرانه، وفى نفسه ميل إلى أن يكون هو

وأولاده وآله عزوة واحدة مستقلة عن غيرها، وهذا يفسر لنا اتجاه الفلاح المصرى إلى الاستقلال بأرضه عن جاره، وميله إلى الانفراد بالخير من دونه، وإن كان ميالاً فى الوقت نفسه إلى أن يكون على صلة بجاره؛ لشئون المعاش وتبادل المنافع، فهو أنانى فردى فى المكان الأول، واجتماعى متعاون مع غيره فى المكان الثانى، وهذا الازدواج فى الشخصية والتصرف لباب شخصية المجتمع القروى. وهو متدين بالضرورة لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذى يطلع الثمر، ويهب الصحة والحياة والولد، ولكنه يتصرف فى تحلل من هذا الإيمان فى تصرفاته إذا اضطرته إلى ذلك الضرورات. ومن هنا كان التظاهر بالتدين عنده أغلب فى تصرفاته على التدين نفسه، فهو حريص على أن يكون محترماً ملتزماً بالدين فى أعين الآخرين، وهو فى الوقت نفسه واثق من عفو الله عما يبدر منه من أخطاء فى الفكر والتصرف ـ يعترف بها أحياناً، ولا يعترف بها أحياناً أخرى فيما بينه وبين نفسه ـ وهو مطمئن إلى خير الأرض التى يزرعها، واثق من أنها لن تخذله، ولهذا فإن الغد لا يقلقه، وتفكيره فى المستقبل قليل، وهو قانع بهذا الطراز من الحياة، مجتهد فى المحافظة على كيانه وكيان أسرته الصغيرة، وهذه كلها خصائص إيجابية وسلبية تتكون منها بنية المجتمع القروى المصرى، الذى هو أساس المجتمع المصرى كله، وهذه البنية القروية التى تقنع بالعمل القليل وتطمع فى الرزق الكثير، لا تتأخر عن الاستيلاء على كل ما يتيسر لها الاستيلاء عليه غصباً إذا تيسر ذلك. هذه البنية الفردية هى التى تعتبر قاعدة التصرف الفردى والاجتماعى المصرى بصفة عامة، وهى قاعدة معقدة، ولكنها البنية التى تحكم كل البناء الذى يقوم فوقها. فكل مظاهر الحضارة والتنظيم الاجتماعى المصرى قائمة على هذا الأساس، وهذا الأساس هو البنية، وما يقوم فوقه وعليه هو البناء، وهذا التصوير لبنية المجتمع القروى المصرى قائم على نفس الطريقة التى يتبعها أصحاب التفسير المادى للتاريخ فى دراستهم وتحليلهم للمجتمعات، فهم واقعيون يسيئون الظن بالطبيعة البشرية، فى حين أن نظرتنا نحن إلى مثل هذه الأمور نظرة متأثرة إلى حد بعيد بالعاطفة، والميل إلى خداع النفس، فنحن نقول مثلاً إن الفلاح إنسان طيب القلب، خيِّر، متعاون، سليم الطوية فى كل حين، فى حين أن واقع الأمر وحقائق

التاريخ تقول غير ذلك. والماديون ـ وعلى رأسهم كارل ماركس ـ لا يحسنون الظن بالفلاحين قط، وهم يرون أنهم أعداء الحضارة والتقدم؛ لأنهم جامدون متمسكون بما أَلفوه من أنماط الحياة دائماً، وهم أعداء التجديد والتغيير، أعوان لحكومات الظلم والاستبداد بسبب حرصهم على المحافظة على ما بأيديهم مهما كان قليلاً، وهم أعداء الحكومات، لأنهم لا يؤدون الضرائب إلا مرغمين، ونتيجة لهذا فإن الماديين يرون أن المدن ـ لا القرى ـ هى مراكز التقدم والتجديد، وأن الصناعة هى البنية الصالحة لإحداث التغيير الاجتماعى ، والصناع أو العمال هم أساس الثورات والتغيرات الاجتماعية الكبرى، وإذا وضعنا الصناعة على أساس من العلم صحيح، أمكننا أن نقيم على هذا الأساس مجتمعاً إنسانياً قوياً تقدمياً، هو أصلح بكثير من المجتمع القروى القائم على تدين زائف وإيمان غير صحيح بالعلم والعدالة وحقائق الحياة، والماديون لا يقولون هذا القول أو يؤمنون به إلا لأنهم يريدون إحداث التغيير الشامل للمجتمع، و استبدال قاعدته الدينية بقاعدة عملية تقوم على العلم والعمل فى رأيهم، ولهذا فإن كل اهتمامهم موجه إلى العمل على تغيير البنية، فإذا تغيرت البنية أمكن تغيير البناء، وهم لهذا يقولون إن الدين ليس جزءاً من البنية، بل جزء من البناء، فهو ـ فى نظرهم ـ ليس وحياً من الله للأنبياء الذين أبلغوه للبشر، بل هو عندهم ابتكار إنسانى وظاهرة اجتماعية ـ كما يقولون ـ قابلة للتغيير والتطوير أو الإلغاء .

التحول الاجتماعى والسياسى الشامل فى عصرنا :

وهذا التفكير فى البنية والبناء، أو الباو والأوبر باو ـ فى الألمانية ـ أو الاستراكشر والسوبر ستراكشر ـ فى الإنجليزية ـ هو أساس الفكر الاجتماعى عند الماديين، وهم يختلفون عن غيرهم اختلافاً جوهرياً من هذه الناحية، فنحن ـ الذين نؤمن بالدين ـ نرى أن الدين جزء من البنية، بل هو نواة البنية نفسها ، فهو وحى من الله وإرادة إلهية، لا ظاهرة اجتماعية، أو فكر بشرى . وقد قاموا بتجاربهم فى إحداث التغير فى المجتمع الروسى مثلاً ، فقالوا إنهم غيروا بنيته وأحلوا العلم والتنظيم الشيوعى فيها محل الدين وقواعد الأخلاق التى جاءت بها الأديان. وقد تكون التجربة قد نجحت فى روسيا والصين، ولكنها تمت عن طريق إبادة

مجتمعات كاملة وإحلال أخرى محلها، لا عن طريق تغيير بنية المجتمع. والمذابح التى أنزلها الشيوعيون بالناس فى المجتمعات التى يسودونها لا تبرر قط النتائج التى وصلوا إليها، وزعموا أنها نتيجة ذلك العنف كله؛ لأن روسيا ـ مثلاً ـ لم تصل إلى حال القوة التى وصلت إليها بفضل الأفكار المادية، بل لأن الشعب الروسى نفسه شعب ضخم ذكى عامل يسكن أرضاً شاسعة تضم كل عناصر الثروة والقوة والعمل ، وما وصلت إليه روسيا مع الشيوعية كان من الممكن أن تصل إليه عن طريق الحرية والديمقراطية وانتشار العلم، دون حاجة إلى العنف والدماء والمذابح. والعنف والمذابح لا تؤدى إلى خير قط، وبلاد مثل فرنسا وألمانيا وصلت عن طريق الحرية والعلم، ودون إلغاء الأديان أو محاربتها ـ على النحو الذى نراه فى المجتمعات الشيوعية ـ إلى أسوأ مما وصل إليه الشيوعيون؛ لأن الذى تم فى روسيا تم عن طريق أقلية مستبدة ترغم الناس على السير فى الطريق الذى تراه بالعنف البالغ، وقد حرمت الناس من حرياتهم كلها؛ لكى تسيطر بقوة السلاح والإرهاب على مجتمع ضخم من حقه أن يعيش فى هناء رَخِيِّ الظروف والمعايش، بل إن هذا التحول الخطير فى المجتمع الروسى قد جعل ذلك المجتمع خطراً على بقية المجتمعات؛ لأن الأقلية المسيطرة على الشعب بالقوة لا هَمَّ لها إلا صنع السلاح لحماية مجتمعها من الانهيار، والحيلولة دون الشعب وأى تحرك نحو الحرية واحترام حقوق الإنسان؛ لأن الإنسان فيه ـ بصفته كائناً حياً له قدره واحترامه وحقوقه ـ لا وجود له فى البناء الشيوعى ، ونحن بطبيعة الحال لا نؤمن بفضائل المجتمع الرأسمالى المعادى للشيوعية، ونعرف أنه ـ كذلك ـ مجتمع ظالم أنانى حافل بالشرور وألوان الفساد، ولكن عندما يخير الإنسان بين العنف العسكرى والاستبداد والحرمان من الحريات، وبين رذائل المجتمع الرأسمالى الأنانى المستبد على طريقته؛ فهو يختار أهون الشرين، إلى أن تتيسر للبشر ظروف يستطيعون أن يجدوا فيها للسعادة والرخاء والعدالة طريقاً آخر غير هذين ، ويشهد المجتمع الغربى فى عصرنا تحولات وتغييرات فى غاية من الخطورة؛ لأن الحضارة الغربية ـ وهى الحضارة الغالبة على عصرنا ـ دخلت من أوائل هذا القرن فى مرحلة التوسع والسيطرة على البشر،

جعلت منها ما يسميه أرنولد توينبى بالحضارة العالمية أو الجماعة العالمية Universal Church، نتيجة لابتلاعها كل ما استطاعت ابتلاعه من عناصر الحضارة المعاصرة، فدخلت فى تركيبها اليوم عقائد غير مسيحية مثل البوذية والهندوكية، وظواهر حضارية غير غربية مثل الموسيقى الزنجية، وهى عناصر من حضارة (البدائيين) وما يعرف باسم البريميتيفيزم Primitivism وأخذوا من الهند والصين أشياء مثل اليوجا والكاراتيه، وكل ذلك ناشئ من أن بنية مجتمعهم تخلخلت وفقدت تماسكها الأول، فانتشر فيها الإلحاد، وانعدام الحياء، حتى أصبح كشف المرأة عن جسدها كله أمراً عادياً لا يستنكره الكثيرون، وانتشرت المخدرات، ومُذْهِبَات الوعى الكيميائية من مثل عقار إل . إس . دى L. S. D.، التى يتعاطاها الكثيرون، وخاصة من الشبان والشابات، هرباً من الواقع، وفقدان الصغار احترامهم للكبار، وزالت هيبة الرجل من عين المرأة ، وفقدت المرأة حياءها الذى هو أكبر أسلحتها، وهكذا تجاورت واختلطت فى تلك الحضارة الغربية اليوم عناصر شتى غريبة عن طبيعة الحضارة الغربية ، ففسدت كما فسدت طبيعة الحضارة الرومانية من قبل نتيجة لما يسميه توينبى باسم Promiscuity وهى المخالطة الجنسية غير المشروعة، وتوينبى يسميها باسمها اليونانى Promixia، ويريد بها: تخلخل بناء حضارة من الحضارات وبداية تدهورها نتيجة لدخول عناصر حضارية غريبة عنها وتزاوجها بها تزاوجاً غير طبيعى، أى: غير شرعى، وفى هذه الحالة: حالة تقلقل قواعد المجتمع نتيجة لفساد البنية فى ذاتها نجد المسئولين عن الجماعة الغربية يبحثون عن وسائل عنيفة لتأمين مجتمعهم من الضياع، وما دامت المناعة الداخلية للمجتمع قد ضعفت، ولم تعد كافية للحفاظ على المجتمع، فإن حكومات الغرب لجأت نتيجة لذلك إلى استخدام أساليب العنف؛ للحيلولة بين مجتمعهم والانفراط، وإذا كان الرومان عندما دخلت حضارتهم فى دور العالمية قد تحولت دولتهم إلى استبدادية عسكرية غاشمة، فكذلك تحاول القوى الكبرى اليوم المحافظة على أنفسها بأسلحة مخربة، كما نرى فى الأسلحة غير التقليدية والأسلحة الذرية، وهذه كلها ظواهر قوة وخطر، وعلائم مرض اجتماعى حضارى، تنشأ عن عوامل ضعف وخوف، وفى مثل هذه

الظروف يشتد الخطر على الجماعات الصغيرة التى يمكن أن تزول تحت ضغط القوى الكبرى، أو فى أثناء صراعها بعضها مع بعض. وفى عصور تدهور الدولة الرومانية، وصراعها مع الشعوب الجرمانية التى كانت تهاجمها ارتكبت جيوش الرومان شناعات وبشاعات، وأبادت أمماً صغيرة كثيرة، ومثال ذلك أن سكان بلاد اليونان القديمة زالوا وحل محلهم الصقالبة.

وفى يومنا الحاضر يشتد الصراع بين الكتلتين الشرقية والغربية أو الشيوعية والرأسمالية، وكلتاهما فقدت كل مقومات مجتمعها القديم ، أو انهارت بنيتها. فالكتلة الشيوعية مثلاً أنشأت لنفسها بنية جديدة قائمة على القوة العسكرية الغاشمة التى تتستر وراء الفكر المادى الماركسى، أما الكتلة الغربية فهى كتلة الحضارة الغربية التى دخلت بالفعل فى دور انحلالها وتفككت بنيتها، ولم تعد لها مناعة داخلية فاتجهت إلى الحماية الخارجية عن طريق التسليح والإنفاق فى غير حساب على غزو الفضاء وما إلى ذلك؛ مما يدل حقيقة على أن حضارة الغرب التى كانت قائمة على بنيتها التقليدية قد تضعضعت، وبدلاً من أن تقوم على الأخلاقيات فهى تقوم اليوم على قوة المال وقوة السلاح. وهى فى الحقيقة خاوية الروح، وأبسط الظواهر التى تدل على ذلك هو زوال الأمن ، ففى بلاد الغرب الكبرى لا يأمن الإنسان على ماله أو نفسه، ولا تأمن امرأة على نفسها، والمعتدى على النفس والمال، والمعتدى على العفاف لا يلقى جزاءه؛ لأن إطارات المجتمع كله قد تداعت، ولم يعد يحفظها إلا المال والبوليس والقوة العسكرية، وهذه كلها أمور يتنبه لها المؤرخ الواعى لحركة التاريخ وديناميكيته، ولا يتنبه لها السياسى؛ لأن السياسى مشغول بمشاكل الساعة التى هو فيها، والأزمات التى تظهر أمامه ومن حوله. أما المؤرخ فهو راصد لحركة المجتمع والتاريخ، وهو المسئول فى النهاية عن مسار أمته ومصير شعبه، وقد ظهر عجز الفلسفة عن مداواة أمراض البشرية أو إنقاذ الحضارة، وكذلك وقف علم الاجتماع عند حد محدود فى بحثه عن أدواء المجتمع، وأنت تقرأ عالماً عظيماً من علماء الاجتماع مثل ليفى شتراوس فتجد عنده وصفاً أو تحليلاً، ولكنك لا تجد عنده حلاً. وربما كان عمل المؤرخ وتيقظه ـ كما هى حالة رجل مثل أرنولد توينبى ـ أجدى على الإنسانية من عمل أىّ متخصص آخر، وهذا يزيد فى مسئولية المؤرخين.

الإستابلشمنت : النظام القائم The Establishment :

وقد استعملت هنا مصطلح التركيبة الاجتماعية Social Structure وأحب أن أضيف هنا مصطلحاً أحدث وأشمل ، وهو مصطلح المؤسسة أو الإستابلشمنت The Establishment ، وهو من مبتكرات المدرسة الماركسية فى التاريخ، ويراد بها كل العناصر المكونة للمجتمع، أى: الحكومات والطبقات السائدة من أهل السلطان السياسى والجاه المالى والتفوق الفكرى والمَسُودة من العمال البدنيين الذين لا يملكون أى مهارة فنية والفقراء والمعدمين، بل يدخل فيها الوسطاء واللصوص والقائمون على نواحى الرذيلة ـ منظمة كانت أو غير منظمة ـ مثل تجار المخدرات والخمور ومدمنيها، والدعارة والبغاء، وكل المشتغلين بها من حرافيش وصعاليك؛ لأن هذه كلها لها تأثير فى المجتمع ودور فيه، والذين يدرسون المجتمع العباسى فى عصر المأمون مثلاً يرون بوضوح كيف أن هذه الأنواع من الناس ـ وما يمارسون من حرف مقبولة أو مرذولة ـ لها دور وأثر فى المجتمع ودور تاريخى فيه، ولا تتم صورة المجتمع إلا به. وأهم ما فى الإستابلشمنت ـ والمراد بها النظام القائم ـ هى الطبقة الحاكمة ونظام حكمها، وهما معاً يكونان ما يعرف بالنظام القائم أو الريجيم Le Régime، ويدخل فى الطبقة الحاكمة كل ذى سلطان مباشر أو غير مباشر، مثل: رجال الدين ، وأهل الأدب المقربين من الحكام والأغنياء أصحاب رءوس الأموال، والعسكريين، والقائمين على الأموال من رجال المالية إلى جباة الضرائب. وهذه الطبقات بمختلف تكويناتها تدخل فى الريجيم والإستابلشمنت ، وفقهاء العصر المملوكى مثلاً كانوا جزءاً لا يتجزأ من الريجيم، أى : الطبقة الحاكمة، فهم يؤيدونهم ويحلّلون ما يصنعون، فلا نخدع أنفسنا بما كان بعض كبار فقهاء ذلك العصر يتحدثون عنه من الدين والتقى والورع، وما كانوا يصدرون من فتاوى، فهم فى الحقيقة جزء من النظام، ولهم مسئوليتهم عما كان فيه من ظلم وفساد، مثلهم فى ذلك مثل رجال الدين فى النظام الفرنسى قبل الثورة، أو ما يسمى باسم L'Ancien Régime ، ولا يدهش الإنسان عندما يقرأ ما يكتبه **شارل لابروز** عن صلات التعاون والتساند التى كانت تربط بين كبار رجال الدين فى فرنسا قبل

الثورة وخليعات العصر وعشيقات الملوك، من أمثال مدام دبامبادور، ومدام ريكامبيه، فهؤلاء أيضاً كُنَّ جزءاً من الريجيم ومن الإستابلشمنت، أى : النظام القائم نفسه، ولهن فيه دور وسلطان، وكان الكاردينال ريشيلو والأسقف جول مازاران اللذان سيطرا على السياسةالفرنسية قبل عصر لويس الرابع عشر وأثناءه يستعينون بالسفاحين والأراذل والخليعات والمتبذِّلات فى الوصول إلى غاياتهم السياسية، وهم ـ على هذا ـ كانوا جزءاً من الإستابلشمنت، ومن دراسة لابروز يتبين أن المحظيَّات كُنَّ نظاماً قائماً، يبدأ من محظيات الملوك، ثم محظيات الأشراف، ثم من يليهن، حتى نصل إلى العاهرات العاديات، وفى هجوم **أدولف هتلر** على النظام السابق عليه فى ألمانيا يتحدث عن اليهود والماسون ـ أى: البنَّائين الأحرار ـ والشيوعيين ويعتبرهم جزءاً من الإستابلشمنت الفاسد الذى كان يقول إنه أتى للقضاء عليه، وقد كان القضاء على هذه الجماعات مرحلة أساسية من مراحل إقامته لنظامه الجديد، وهو الاشتراكى الوطنى Nazional Socialismus الذى يعرف عادة باسمه المختصر النازى Nazi، وقد حل نظام هتلر محل النظام القديم، وكان يتكون من الحزب، والقوة الضاربة الحزبية من أصحاب القمصان البُنيَّة، وكبار الرأسماليين الذين وظفوا رءوس أموالهم فى خدمة الحزب، ثم الجيش، وقوات الشباب الهتلرى، أو الهتلر يوجند Hitler Jugend ، والبوليس السرى للدولة Geheimstaats Polizei، وهو ما يعرف بالجستابو ، وفى الولايات المتحدة الأمريكية تدخل المافيا والجريمة المنظمة عناصر أساسية فى الإستابلشمنت ـ أى: النظام القائم ـ ولها دور كبير فيه هناك .

ولابد ـ لدراسة النظام القائم فى كل عصر ـ من دراسة جميع مكوِّنات الإستابلشمنت، سواء أكانت فاضلة أم غير فاضلة، وأساسية أم ثانوية. وما عليك إلا أن تدرس الكتب التى ألفها كاتب أمريكى مشهور هو **جون جنتر** John Gunter عن دواخل الأمور فى نواحى عالمنا الحالى ، وهو يسميها كتب الدواخل The Insides مثل Inside Asia وInside Europe وInside The United States وغيرها .

وفى الكتاب الأخير تتجلى لك الحقائق التى ذكرناها عن «الإستابلشمنت»،

أو النظام القائم فى الولايات المتحدة الأمريكية، وأنت ترى فى هذا الكتاب كيف أن ممثلى القوى الفاضلة من القضاة ورجال القانون وأساتذة الجامعات وأفاضل رجال الدين وأصحاب الشركات الأمنية، وبعض أعضاء الكونجرس يتعاونون بصورة غير مباشرة مع رجال الرذيلة من وسطاء وأهل الأروقة The Lobbyists وجواسيس يطلعون على أسرار الناس ليتاجروا بها، ونصابين وسفاحين محترفين ومهربين ومصارف وهمية يعتمدون عليها فى تسيير أمورهم.

والإستابلشمنت ـ أو الريجيم، أو النظام القائم ـ هو الصورة العامة الظاهرة للبناء الاجتماعى، والسياسى، فى أى دولة من الدول.. ويسمى فى مصطلح الشيوعيين بالأوبر باو، أو السوبر ستراكشر. وهذه الصورة فى تغير دائم بحسب الظروف ومطالب السياسة. ويزعم الشيوعيون أنهم أزالوا من مجتمعهم الفواصل بين البنية والبناء، وأن مجتمعهم الشيوعى بنية واحدة سليمة، وهذا وهم وخداع؛ لأن البنية عندهم هى المؤسسة العسكرية التى تؤيد الشيوعية؛ لأنها وسيلة مستورة لتمكين العسكريين من السيطرة على المجتمع، والمؤسسة العسكرية الروسية هى الحارسة على أضخم بناء رأسمالى استعمارى استبدادى عرفه التاريخ، وهو اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية. والرأسمالية هنا تتمثل فى الدولة. . ورأس المال هو الجيش والأسلحة بكل أنواعها.

ومصطلح « الإستابلشمنت » ـ أو النظام القائم ـ معروف من أوائل القرن الثامن عشر، ولكن الاشتراكيين والشيوعيين هم الذين أعطوه معنى التركيبة السياسية والاجتماعية الذى ذكرناه؛ لأنهم عندما بدأوا يدبرون إحداث الانقلاب الشامل فى النظم القائمة اتجهوا إلى القضاء على النظم القائمة بكل مقوماتها ومؤسساتها ورجالها وحواشيهم وأتباعهم على مذهب نيتشاييف فى النيهلية أو اللاشيئية ، أى : القضاء على كل شىء قائم ، وإحراق الأرض لإقامة نظام جديد ـ كما قلنا ـ ومن هنا فقد أخذ اللفظ ذلك المعنى الشامل لأى نظام كامل وكل ما يتصل به . وقد نجح الشيوعيون فى إقامة التنظيم الشيوعى الجديد الكامل الذى يعتبر كل أهل البلد داخلين فى الإستابلشمنت ، فلا يقتصر النظام القائم على

الهيئة الحاكمة وما يتصل بها، وإنما الأمة كلها بكل طبقاتها داخلة فى النظام القائم، ورياسة النظام ـ وهى الحزب الشيوعى ـ صاحبة حق كامل مطلق فى حياة كل المواطنين وأموالهم ، وصاحب الفضل فى تطبيق هذا التفكير هو لينين ، فقد عرف بالعقل كيف يدخل كل الشعب الروسى وما خضعت له من شعوب أخرى فى هيئة جمهوريات اشتراكية بالاسم، ولكن معظمها مستعمرات تستغل وتستخدم لخدمة التنظيم الجديد ، ولكن تطوراً مهماً وقع فى أيام ستالين وهو أن التركيبة الشيوعية الحاكمة انحصرت بشكل حاسم ونهائى فى الحزب ورجاله، والحزب يعتمد أساساً على القوة العسكرية، فعادت روسيا بذلك إلى صورة جديدة من النظام القائم القديم ـ أى : الأقلية التى تحكم بقية الشعب ـ وهو نظام يختلف عما نقرأه عند كارل ماركس ، ونجده فى تطبيقات لينين ، ولهذا تسمى الاشتراكية الأصيلة ـ عندهم ـ ماركسية لينينية ، أما نظام الحزب الشيوعى الحاكم بتأييد الجيش فهو من التطورات التى حدثت أيام ستالين ـ كما قلنا ـ واستمرت بعد ذلك أيام مالنكوف ، وخروشوف ، ثم ليونيد بريجنيف ، وكوسيجين ، ومن جاء بعدهم من حكام الاتحاد السوفييتى .

وفى داخل كل نظام قائم (إستابلشمنت) توجد هيئات قائمة بذاتها تسمى أيضاً إستابلشمنت، وقد تعودنا أن نسميها بالمؤسسات، ولا بأس بالتسمية؛ لأنها توجد تفريقاً ضرورياً بين مصطلح النظام القائم ومصطلح المؤسسات الداخلة فيه، مثل المؤسسات العسكرية ، ويراد بها القوات المسلحة . والمؤسسة القضائية، ويراد بها كل الهيئات العاملة فى ميدان خدمة العدالة، بما فى ذلك المحامون. والمؤسسة المالية The Monetary Establishment ، بل هناك مؤسسة المصارف Banking Establishment ، وما إلى ذلك .

ولابد لكل تركيب سياسى من نظم يقوم عليها، وهى القوانين الخاصة بالدولة عموماً وأولها الدستور، ثم القوانين الخاصة بتنظيم كل ناحية من نواحى العمل أو أى نوع من أنواع المعاملات، أى أن النظم Institutions هى صميم التركيب السياسى الاجتماعى فى أىّ دولة، وعلى سلامة النظم وحسن عملها وطريقة

تطبيقها، ومدى احترام الناس لها، تتوقف سلامة النظام كله وقوته داخلياً وخارجياً.

وبصفة عامة: يمكن أن يقال إنه **كلما كثرت القوانين وتلاحقت ، وأعقب بعضها بعضاً ؛ كان ذلك دليلاً على ضعف النظام كله ، نتيجة لهشاشة مؤسساته ، كما نرى فى بلاد العالم الثالث .**

وأسوأ النظم هو نظام الحكم الفردى، والحكم بمراسيم رئاسية أو تشريعات عاجلة مرتجلة تخدم الحاكم نفسه، أو آله وحواشيه، وذلك أيضاً شائع فى دول العالم الثالث الفقير. وقد ابتكر أهل أمريكا اللاتينية نظام الخونتا La Junta أو الخونتا ميليتار La Junta militar وهى جماعة من الضباط تستولى على الحكم بالقوة، وتحكم استبدادياً حتى تتألف جماعة أخرى وتزيلها لتحل محلها. وفى إسبانيا وأمريكا اللاتينية أيضاً ظهر ما يسمى باسم Guerrilla الجريًّا، وهو مصغر لفظ Guerra أى: الحرب، فالجريًّا ـ لا الجيريلا ـ هى الحرب الصغيرة، أو حرب العصابات، وهى ليست شراً دائماً، لأنها فى الواقع شر نشأ عن شر، بمعنى أنه لما أثقل المستبدون على الناس بالظلم قامت عليهم جماعات الثوار، وحروب الجريًّا.

ومهما قيل فى أعمال الثوار الذين يسمون أيضاً بالإرهابيين Terroarrists فهى ناشئة عن الظلم، ولولا الطاغية لما كان رجال الحروب الصغيرة Los Guerrilleros أو الإرهابيون، وهذه الأخيرة تسمية تعسفية؛ ففى بعض الأحيان يكون المسمَّون بالإرهابيين هم أصحاب الحق، أى هم النظام الشرعى الذى ينبغى أن يحكم، فى حين أن السلطان القائم بالقوة يكون هو الإرهاب، وأصحابه الذين تعترف بهم الدنيا أحياناً يكونون هم الإرهابيين، والخارجين على القانون، وهذه الظاهرة توجد ـ اليوم ـ فى فلسطين المحتلة .

***